المحاضرة الخامسة: الشعر الإصلاحي الديني الجزائري

يقول عبد الله ركيبي: "كان من الطبيعي أن يرتبط الشعر بالفكر الإصلاحي لأن الذين دعوا إلى الإصلاح احتضنوا التراث والأدب واللغة والثقافة العربية في الجزائر، ومن ثم ازدهر الشعر في ركاب هذا الفكر وعبر عن أهدافه ومراميه"[1].

فالدين إذا كان قد ضعف في النفوس وطغت عليه الأوهام والخرافات بسب ممارسات الطرق الصوفية الموالية للاستعمار، ودخل فيه ما ليس من جوهره ومبادئه، فإنه كان في الماضي قوة روحية ومبادئ اجتماعية مكنت من تأسيس حضارة عربية إسلامية أضاءت العقل الإنساني بتوهجها، ووسعت مداركه، وفتحت له آفاقا واسعة في العلم.

أما المجتمع الجزائري إذا كان في حاضره (في العشرينيات من القرن الماضي) يتخبط في التخلف المادي والمعنوي فذلك بسبب الاستعمار وليس عن قصور ذاتي لأنه كان في الماضي مجتمعا متقدما حضاريا وثقافيا[2].

ولكي يتخلص الجزائريون من هذا كله، لا بد من تطهير الدين مما علق به من أوهام وخرافات، ويطوروا اللغة بالتجديد في أساليبها، ويحرروها من الجمود في تعابيرها وصيغها، لذلك كان لابد من المطالبة بتحرير الدين من السيطرة الفرنسية، ونشر التعليم العربي، بتكوين مدارس خاصة، وتدريس علوم العربية في المساجد، وهذه كلها شعارات رفعتها الحركة الإصلاحية منذ بدايتها، لهذا ارتبط الشعر بالفكرة الإصلاحية التي ترى أن التقدم لا يتم إلا بإحياء التراث الثقافي والأدبي وإصلاح المقومات الأساسية من لغة ودين وتاريخ وحضارة.

ومن هنا اتجه الشعر إلى التركيز على فكرة الإحياء، وكانت النظرة تركز على الماضي الذي يمثل النموذج الذي يتبع.

لهذا حظي الدين الإسلامي بنصيب وافر من الشعر الجزائري الحديث، فالشاعر في هذه الفترة كان يتأمل واقع المجتمع، وما انتشر فيه من أمراض محاولا إصلاحه من زاوية الذين، فتراه يذكّر في كل مناسبة بالرجوع إلى القيم الروحية واقتفاء أثر السلف الصالح الذي هو سبيل النجاة انطلاقا من مبدأ "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها". ولاشك أن القصائد

---

[1] – عبد الله ركيبي: الشعر الديني الجزائري الحديث، ج2، ص7.

[2] – ينظر: المرجع نفسه.

الأولى التي تنقد الواقع وتدعو إلى الرجوع للدين الصحيح هي قصيدة (المنصفة)[1]، للشاعر المولود بن الموهوب* التي تصف واقع الشعب الجزائري في العقد الأول من القرن العشرين تتبع فيها صاحبها ما حدث في المجتمع من أمور خارجة عم الدين وكيف أنه غرق في الضياع وانتشرت فيه الخرافات والبدع، وهي قصيدة تمثل البداية الحقيقية للشعر الإصلاحي الديني الذي حمل مشعل الدعوة إلى النهوض وتطهير المجتمع من الخرافات والبدع. ومطلعها يدل على المرارة التي كان الشاعر يحس بها نتيجة اضطراب الحياة وما انتشر فيها من موبقات ومن أناس لا همّ لهم سوى العبث بالدين والأخلاق، يقول:

صعود الأسفلين به دُهينا لأنّ للمعارف ما هُدينا
رمت أمواج اللهو منا أناس للخمور ملازمينا
نعم: إنا شُقينا إذا سقينا كؤوس الجهل لكن ما روينا
يناديا الكتاب لكل خير فهل كنا لذلك سامعينا؟[2].

أما الشاعر محمد العيد لسان حال الحركة الإصلاحية فهو من أبرز الأعلام الذين نبهوا الناس من غفلتهم وأيقظوهم من سباتهم، وفتحوا أعينهم على المؤامرة التي تحاك ضد الإسلام إذ يقول:

أفيقوا فهذا الدين دين ربوعكم تنازله الأحداث شر نزال
تحاول نكباء الضلالة نسفه وترميه أشلاء الردى بنبال
فقوموا مقامات الدفاع حياله ليأمن هذا الدين كل ضلال[3]

وكانت تعرية أدعياء الدين وفضح سوءاتهم من بين وسائل الرّد المؤثرة عليهم، فقد كانوا يحيطون أنفسهم بقداسة مرهبة للعامة، ويتمظهرون بمظاهر مختلفة مع ما يتبع ذلك من فكر غريب، يصور محمد العيد ذلك في هذا المقطع من قصيدته الخالدة التي ألقاها سنة1933م بمدرسة الشبيبة بالجزائر العاصمة:

---

[1] – المرجع السابق، ص11.

* من مواليد قسنطينة في 1866. وكان تعليمه الديني وثقافته العربية الإسلامية دعما له على اتباع النهج الإحيائي في الشعر والفكر الإصلاحي.

[2] – محمد الهادي السنوسي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص69.

[3] – محمد العيد آل خليفة: الديوان، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1992، ص13.

وفشا الدجل فالولاية دعوى كل ذي سبحة تطول وذقن

وغلا القوم في الولي فظنوا أنه كالإلـه يغني ويقني[1]

و يذكر الطيب العقبي من جهته الانحراف الذي طال الطرق الصوفية بعد ما كانت مراكز لتخريج العلماء والمجاهدين، أصبح أصحابها مجرد انتهازيين – رغم المكانة التي تمتعوا بها– ومخادعين يبتزون المال:

فما الطرق في هذا الزمان مجادة ولنكها يبغي بها أهلها الرزقا

تجارة قوم عاجزين، سبيلهم سبيل ضلال جانبوا العلم والصدقا

وشيخهم الأتقى (الولي) بزعمه إذا ما رأى مالا أمال لـه عنقا

أولئك عباد الدراهم، ويلهم سيمحقهم ربي، وأموالهم محقا

متى ألقهم، أبصر شياطين فتنة ويا ليت أني لا أراهم ولا ألقى[2]

وفي الثلاثينيات يفضح حمزة بوكوشة التناقض المريع بين مظهر (الولي) الخادع، ومخبره الزائف، فهو يظهر للناس في مسوح التقى والزهد، ويختلي لنفسه في صورة شيطان:

ربع قرن قضيته في الصحافة دائبا ساعيا لنشر الثقافة

لم أؤيد مدى الحياة خؤونا غادرا بالبلاد، أو ذا خرافة

يدعي العلم والتصوف حتى يكسب الفلس، أو يروم اختطافه

ظنه الجاهلون شيخا تقيا وهو من يحتسي كؤوس السلافة[3].

والأدهى والأمر هو قدرة الطرقيين في التأثير على عامة الشعب الجاهل، وشدة واعتقاده لمنطقهم ن الغريب، وخضوعه لهم، بل واعتقاده أن ذلك هو الدين الصحيح، فإذا العوام سوائم تُهش بعصا الضلالات، يقول محمد السعيد الزاهري مصورا ذلك:

كانوا طوائف شتى، كل طائفة تطيع شيخا لها في كل ما زعما

إن قال إني (ولي) صدقوه وإن هو ادعى الغيب، قالوا أحكم الحكما

---

[1] – محمد العيد آل خليفة : الديوان، ص111.

[2] – محمد بك: محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع: (رسالة ماجستير غير منشورة) جامعة الحاج لخضر باتنة، 2008–2009، ص 177.

[3] – صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص43 .

في كفه المنع والإعطاء عندهم والدين والخير فيما شاد، أو هدما[1].

ثم يهيب الزاهري بالدور الكبير الذي قام به شيوخ الجمعية في إصلاح ما أفسده غيرهم من رجال الطرق المنحرفة، وكيف تغير سلوك العباد ووجه البلاد بعد موجة الإصلاح الشامل:

ومذ أتى علماء الدين واندفعوا يستنهضون إلى إصلاحها الهمما

ويعملون على نشر العلوم بها أضحت تشابه في أعمالها الأمما[2]

أغراض الشعر الجزائري

أ- الدعوة إلى نشر العلم والمعرفة

من الشعراء المجيدين في هذا المجال: محمد العيد وأبو اليقظان وحمزة بوكوشة وأحمد سحنون.

يقول محمد العيد:

العلم سلطان العقول فسد به من شئت أو ذد عن حياضك وادفع

والْجأ له بدل الحصون فلا أرى حصنا كمدرسة سمت أو مصنع

قل للجزائر انشئي كلية تمحو جهالة شعبك المتسكع

الجهل غيم فوق أرضك ضارب غطى على أرجائها والأربع[3].

ويوم واصلت النهضة الإصلاحية رسالتها بعد الحرب العالمية الثانية، أسفرت المدرسة الحرة عن وجهها الحقيقي، وفرضته على المستعمر في وضح النهار، وغدت مدرسة حربية رسالتها تخريج دعاة الثورة وحملة السلاح، وأصبحت رسالة المعلم فيها الجهاد والتحرير وفك الأسر، وأصبح الطلبة هم الجند والعتاد والفداء كما نلمس ذلك في قصيدتي أحمد سحنون: (إلى المعلم) وإلى (التلميذ:

هات من نشء الحمى خير عتاد وأدخرهم لغد جند جهاد

هات نشأ صالحا يبني الحِمى و يفك الضاد من أسر الأعادي

يا مربي النشء، يا باني النهى يا محلَّ الحب في كل فؤاد

---

[1] – المرجع السابق ، ص38/37 .

[2] – المرجع نفسه، ص20(الملحق).

[3] – محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص145.

قُدْ إلى العلياء أشبال الحمى وإلى تحريرهم، كن خير حاد[1]

ولا يختلف دور المدرسة عند إبراهيم أبي اليقظان عن سابقه فالمدرسة هي المهد الذي منه يتخرج حملة السلاح، وفيه يتكون الجند المنتظر لتحرير الوطن ليعيش حرا طليقا كسائر البلدان التي تتعم بالحرية:

وما الفضل إلا للمدارس إنها مغارس مجد الشعب في كل أزمان

هي القلعة الكبرى هي الحصن في البلى يصد به حراسه كل طغيان[2]

ويصف لنا محمد السعيد الزاهري مشاعر الداعية، وما يلاقيه من متاعب وما يتعرض له من أذى وما يصيبه من شر، وما يشعر به من اغتراب وهو ينشر العلم في مجتمع يتحكم فيه الجهل، ويسيره الولاء الأعمى للطرق الصوفية:

لم أجد في الشقاء من هو أشقى بحياة من عالم محروم

بين قوم عمي البصائر صم ليس فيهم غير الجهول الأثيم[3]

ب- شعر الحنين إلى الماضي و استلهام الأمجاد والتمسك بالجذور التاريخية

من طبيعة الأمم في فترات نهوضها أن تلوذ بماضيها وتستوحي أمجادها السالفة، وتستحيي بطولاتها خاصة إذا كان هذا الماضي مجيدا، وفي هذا المضمار يلتفت محمد العيد إلى تاريخه المجيد يذَّكر المستنكفين عن ماضيهم، ويرد عليهم بالوقائع التاريخية الثابتة، وبالحجج الدامغة على عراقة بلاده الجزائر، وإيغالها في التاريخ، ويذكرهم بالمعالم البارزة، معددا الأماكن التي شهدت حضارة ومدنية مازالت آثارها ماثلة للعيان:

لا تقولوا هان الجدود فهنا ساء نشء له بهم سوء ظن

في تلمسان في بجاية في تيهرت في القلـــعة ازدهى كل فن

يوم كانت مهاجر الشرق والغر ب مثابا كمعهد وحصن

وعليها من الملك ذوي العز ة و البأس كل سهران فطن

---

[1] – أحمد سحنون: الديوان الجزء الأول، ط2، منشورات الحبر، الجزائر،2007،ص14.

[2] –إبراهيم أبو اليقظان: الديوان،ج1، ط2، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية الجزائر،1989، ص129

[3] – محمد ناصر: الشعر الجزائري اتجاهاته وخصائصه الفنية (1925-1975)، ص279 .

دعموا البر دعموا البحر بالأعلام من منشـــآت مدن وسفن[1]

أما الشاعر محمود بن دويدة فقد وقف واستوقف، وبكى واستبكى، وقف ليس على أطلال الأحبة-كما فعل شعراء الجاهلية- ولكن على أطلال مجد العرب الضائع:

وقفت برسم العرب، وقفة خاشع وقلت: ضياعا ما نظمتم من الدر

معاهد كانت- والورى في جهالة- محط رحال العلم، والعز والنصر

فلله ربعا، كم حبا الغرب سؤددا، ومجدا يحار فيـه فتى الشعر

يقول: انظروا ما شيدت يد علمهم على الرغم مما غيرته يد الدهر

و يبكي ويستبكي، فيرسل أبحرا من الدمع حتى فاض دمعي على صدري[2]

ج- مواكبة الأحداث السياسية

كان الشعر من أهم المنابر المعبرة عن أفكار الحركات السياسية والجمعيات وقد اختار بعض الشعراء الانضواء تحت لواء الأحزاب، كما فعل مفدي زكريا، الذي انضم إلى حزب الشعب، ومحمد العيد الذي رابط في صف جمعية العلماء، وواكب بشعره كل القضايا السياسية التي خاضت معامعها، ومن القرارات السياسية المستفزة لجمعية العلماء، قرار إغلاق مساجد العاصمة في وجه القائمين بالوعظ والإرشاد من أعضاء الجمعية سنة1933 " هذا القرار الذي كان بإيعاز من رجال الدين الرسميين المناهضين للحركة الإصلاحية، وبتواطؤ مع النيابة الجزائرية"[3]

وقد عبر محمد العيد عن هذا الحدث، وأظهر وعيا سياسيا كبيرا ومطامح ثورية، يقول في هذا المجال ساخرا من النواب الذين يطأطئون رؤوسهم خضوعا لذوي السلطة، كاشفا مساوئ الاستعمار ونواياه البغيضة من غلق المساجد والمدارس:

أفدني برأي في النيابات هل حوت أساود في قاعاتها أم وسائدا

وإلا فما تلك السموم التي سرت فمن ذاق منها طأطأ الرأس هامدا

ألم يأتها أن المعابد حجرت على الذاكرين العامرين المعابدا

فيا نائبا ناب البلاد بحادث فخلف شعبا قائما فيه قاعدا

---

[1] – محمد العيد آل خليفة : الديوان، ص110/109.

[2] – صالح : خرفي الشعر الجزائري الحديث، ص105.

[3] – المرجع نفسه، ص193

على أي ظهر كنت سوطك منزلا وفي أي نحر كنت سيفك غامدا[1]

أما(مفدي زكريا) فيضع النقاط على الحروف في المأساة الحزبية والنيابية، وبعدد مظاهر بشاعتها، ويلتفت إلى ما آلت إليه السياسة في الجزائر من فوضى، وإلى من تجسمت فيهم من أقزام، وغربان وأبقار معممة، وإلى مجالات الصراع التي انحصرت في الجدران الملطخة بالشعارات، والمنابر المرفوعة للتهريج، والمستعمر على الربوة يجلس جلسة السلامة [2]:

وفي الجزائر نصابون، همهم على الدراهم مقصور ومحدود

وللزعامة دجالون ليس لهم من الزعامة إلا الخمر والغيد

وللشعائر هداجون، قد جثموا حول المقاصر أحلاس قنافيد

وفي المجالس أصنام، تحركها يد المعمر، تحميها التقاليد

وفي القيادة، أبقار معممة للعار تدفعها غربانها السود[3]

د- مواكبة نشاط جمعية العلماء

لقد كان وجود جمعية العلماء وفق أهدافها الإصلاحية المتمثلة في الإصلاح الشامل، كان مُلهما للشعراء الذين كانوا يتغنون زهوا بوجود هذه الجمعية، ويتابعون أعمالها ويشيدون بها، وقد كان محمد العيد لسان حالها دون منازع، فهو الذي يحيي بحماسة أعمالها، ويبرز دورها ومكانتها في حمل لواء المعرفة كما يتجلى ذلك في الكثير من قصائده، ومن أمثلة ذلك قصيدته (تحية العلماء) التي ألقاها احتفاء بانعقاد المؤتمر التأسيسي الأول للجمعية سنة1931:

على الرحب حلوا أجمعين على الرحب فأنتم ضيوف في حمى الله والشعب

طلعتم علينا كالكواكب في الدجى وسرتم إلينا كالسحائب في الجذب

بسطنا لكم منا قلوبا حفية فدوسوا عليها لا تدوسوا على الترب[4]

وقد منح الشاعر ثقته للجمعية وظل وفيا لمبادئها وأهدافها، حيث نجده في القصيدة نفسها يعرض آراءه التي تنسجم مع أهداف العلماء للدلالة على أنه جندي في صفوفهم:

---

[1] – محمد العيد : آل خليفة الديوان، ص97.

[2] – صالح خرفي: الشعر الجزائري الحديث، ص181.

[3] – مفدي زكريا: اللهب المقدس، ط3، موفم للنشر، الجزائر،2000، ص266-267.

[4] – محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص147.

هنيئا لكم هذا اللقاء، فإنه بشير بما تبنون من راسخ الحب

فخطوا له منكم حدودا منيعة من العلم والشورى ومن صالح الكسب

وأبقوه للأجيال صرحا ممردا دليلا عليكم خالدا طيلة الحقب

أعيدوا على الإسلام هدي محمد بما كان يمليه على الآل والصحب[1]

ولأحمد سحنون قصيدة بعنوان (جمعية العلماء أدت رسالتها) يبرز فيها أهم الإنجازات التي حققتها الجمعية في مختلف الميادين:

(جمعية العلماء) أدت رسالتها رغم العوادي، ولم تبرح تؤديها

لم تألُ جهدا و لم تخضع لطاغية ولم تضق بأذى ممن يعاديها[2]

أما مفدي زكريا، فيرى أن جمعية العلماء هي أمل الشعب الوحيد في خلاصه وتحريره من العبودية والاستغلال، وبالتالي فهي جديرة بالثقة التي وضعها فيها الشعب، إذ يقول:

يا نشأة العلم، لا تقعد بكم همم عن الجهاد فإن الوقت محدود

كونوا الخلاص لشعب لا نصيب له ممـن يعذبه إلا المواعيد

وحطموا القيد والأغلال أن له فما وجسما: فموصود ومصفود[3]

الخصائص الفنية لشعر الاتجاه المحافظ

أولا- من حيث اللغة والأسلوب

أ – العناية بالموضوع

لم يتحدث النقاد في الجزائر كثيرا عن وظيفة الشعر في بداية النهضة كما هو الشأن في المشرق العربي، غير أن محمد الهادي الزاهري تناول القضية من زاوية أخرى"وهي زاوية ما إذا كان الشعر ضروريا للأمم أم لا.

فكان هذا الباحث لا يتصور أمة متقدمة أو متخلفة إلا إذا كان لها شعر وشعراء، وهذه نظرة نفعية إلى الشعر على أنه وسيلة إصلاح وتهذيب، يقول في تحديد دور الشعر والشعراء: "إذن

---

[1] – المصدر السابق، ص ن.

[2] – أحمد سحنون: الديوان، ص25.

[3] – مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص269-270.

فلنعلم أن الشعر والشعراء لا غنى لأية أمة عنهما، إذ بنتائجهما ينتج لنا كل ما نحن في حاجة إليه من سنن أخلاق واجتماع وتربية وتهذيب ..."[1].

وفي هذه الفترة انطلق رمضان حمود الذي كان معاصرا لذلك الشعر، وأدلى بدلوه فيه ناظما وناقدا، انطلق في مفهومه للتجربة الشعرية من شعوره ورؤيته بأن "يتحول الشعر من اهتمامه المسرف بالصنعة الشكلية، إلى اهتمام أكثر بالمضمون... مضمون يستوعب واقع الأمة العربية المضطهدة، ويتغنى بآلامها وآمالها، وأن الأَوْلَى بالشعراء عن هذا الشعر الذي يخدم الخواص وأرباب القصور، إلى شعر يقود الجماهير ويهتم بقضاياهم"[2].

وكانت دعوة حمود إلى الثورة على مضامين الشعر السائدة في عصره شاملة، فأنكر على الشعراء ما يلجأون إليه من التشطير والتخميس وأنواعهما، ورأى في ذلك ضربا من العبث فقال: " فمن شاء منكم التشطير فليشاطر مواطنيه في الأمور العظام والأعمال الجليلة ومن أراد المعارضة فليعارض الخونة سماسرة السوء. ويعاكسهم في أعمالهم الخبيثة. ومن كان له غرام بالاحتذاء فَلْيَحْتَذِ أجداده الكرام وأسلافه العظام في إبائهم ونخوتهم وعزهم وقوّتهم وسلطانهم، ومن تعلّقت نفسه بالمدح، فليمدح الأخلاق الفاضلة وينشرها بين قومه، ومن مال إلى الهجاء فليهج العادات الفاسدة، ويذم الرذيلة بأنواعها، ومن أحبّ التغزل فليتغزل في وطنه الجميل"[3].

وبعد أن جسّد حمود وظيفة الشعر ناقدا، يجسدها شاعرا بقوله:

وشعري كالحسام يصون عرضا بلا حرب عوان ولا قتال
يصادم من يعيث بمجد قومي ويطعن ذا الضلال بلا نزال
ويضرم فحمة الألباب حتما ويشعل أنفاسها أي اشتعال[4].

أما أبو اليقظان فإن رؤيته للشعر لا تختلف عمن سبقه، فقد انطلق في تعريفه للشعر وتحديد وظيفته – في مقدمة ديوانه– من ظروف بلاده وما تعانيه، فكانت نظرته نفعية تتوافق وما يتطلبه الشأن العام من ضرورة صيانة الدين والموروث الثقافي للشعب الجزائري بكل عناصره

---

[1] – محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج2، ص 26.

[2] – محمد ناصر: رمضان حمود حياته وشعره، ص62.

[3] – صالخ خرفي: رمضان حمود ، ص48-49.

[4] – المرجع نفسه، ص49.

ومكوناته، يقول: "فالشعر هو مظهر تظهر فيه مشاعر الأمة وتتجلى فيه أحوالها...الشعر في النفس نور مَثَلُ نوره (كمشكاة فيها مصباح، المصباح في زجاجة) يرسل أشعته من نافذتها فيضيء بها بطون الليالي المقبلة مدى العصور، الشعر قالب تسبك فيه أغراض الإنسان وتصاغ فيه غاياته، الشعر خزانة البشر فيها تحفظ آثاره، وتصان مآثره وتدّخر فضائله... الشعر لسان الإنسان، فبه يذود عن الحمى ..."[1].

أما موقف شاعر الثورة مفدي زكريا من مضامين شعره فنجده في مقدمة ديوانه (اللهب المقدس) حيث يقول: "لم أعن في اللهب المقدس بالفن والصناعة، عنايتي بالتعبئة الثورية وتصوير وجه الجزائر الحقيقي بريشة من عروق قلبي غمستها في جراحاته المطلولة، والشعر الحق في نظري إلهام لا فن، وعفوية لا صناعة"[2].

وما يستنتج من هذه الأقوال أن موضوعات الشعر هي مطالب الوطن في ظل الاستعمار، وهي مدار الحركة الوطنية بجوانبها: الاجتماعي والثقافي والسياسي.

ب – الاقتباس من القرآن الكريم

انطلق الشعراء من موقف ديني واضح ينهلون من مصادر النهضة العربية ، خاصة من القرآن الكريم، "ولم يكن هذا الموقف إلزاما من الحركة الإصلاحية التي مثّلتها الجمعية بعد ذلك، بل كان التزاما تلقائيا ينبع من روح الشاعر المسلم نفسه، فإيمانه هو الذي يوجه شعره، وينظم حياته، ويبرز له معالم الطريق، ومن ثمة كان الشعر الإصلاحي شعرا هادفا لم يفارق روح الإسلام في موضوعاته التي كانت تنبثق من مشكاة واحدة، وتجتمع على هدف واحد هو الإسلام في هذا الوطن المدنس برجس الاستعمار وخرافة الطرقيين"[3].

ويرجع سبب ذلك إلى طبيعة تكوين هؤلاء الشعراء الذين تخرج أكثرهم من جامعة الزيتونة التي كانت أكثر استقطابا للطلاب الجزائريين في فترة الدراسة لسهولة الوصول إليها، وتوفر الدراسة باللغة العربية بها، ولأن التعليم في تلك المعاهد لم يكن يختلف في مواده عما كان يقدم في الزوايا والكتاتيب، إضافة إلى كون العاصمة التونسية تعج بالأفكار الإصلاحية المتأثرة بمحمد عبده،

---

[1] – إبراهيم أبو اليقظان: الديوان ج1، ص53.

[2] – مفدي زكريا: اللهب المقدس، ص4

[3] – محمد كناي: الشعر الإصلاحي الجزائري الحديث (قضاياه المعنوية والفنية 1925–1962)، ص228.

الأمر الذي جعل رواد الشعر الجزائري الحديث يتشابهون في الاتجاه والتفكير، ويتقاربون في الأساليب وطرق التعبير[1].

ونظرا للأسباب السالفة الذكر، فقد ظهر التأثر بالقرآن الكريم في الشعر الجزائري الحديث إلى حدّ بعيد، سواء في الألفاظ والعبارات أو في الصور، وهذا أمر طبيعي نظرا لثقافة الشعراء الدينية.

و بجولة قصيرة في دواوين بعض الشعراء، ندرك مدى شيوع الألفاظ القرآنية في قصائدهم، إما تضمينا، وإما اقتباسا أو لفظا صريحا.

ج- توظيف الموروث الشعري القديم

يمثل التراث مرجعية معرفية للشعراء الجزائريين زمن الحركة الوطنية، لذا فإن العلاقة بينهما علاقة تلازم، ومن مظاهر هذا التلازم، أن الموروث الشعري القديم يمثل الظلال الوارفة لنصوصهم، فلم يقتصر الاقتباس على القرآن الكريم وحده، وإنما شمل التراث الأدبي القديم لاسيما الموروث الشعري ومحاكاته، وهذه الظاهرة ليست من خصائص اللغة الشعرية عند شعراء المدرسة التقليدية فحسب، بل هي موجودة بشكل جلي عند جيل الثورة.

وتتجلى منذ بداية النهضة الجزائرية لدى رمضان حمود في قوله:

أعانق الحق في قول وفي عمل وأنهض القوم، إن مالوا إلى الكسل
فلا أداهن قومي إن هم اقترفوا ذنبا يُلابس وجه الحق بالخجل
ولا أعيش بأرض الذل مكتئبا فالذل من شيمة الأنذال و السفل[2]

فالشاعر يدعو إلى النهضة ويرفض الذل ويحث قومه على مواجهته، ولا يداري قومه، وقد قلّد الطغرائي* في الاعتزاز بالنفس والثقة بها واحتقار الأخطار وتحدي الصعاب وهذه القطعة فيها الكثير من معاني قصيدة الطغرائي (لامية العجم) وألفاظها والتي يقول فيها:

أصالة الرأي صانتني عن الخطل وحلية الفضل زانتني لدى العطل

---

[1] - ينظر محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه، ص42.

[2] - محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص 288.

* - الطغرائي (الحسين بن علي بن محمد بن عبد الصمد، شاعر ولد بأصبهان وعاش بين (849-911هـ -1495-1505م) أشهر شعره قصيدة (لامية العجم)، تنظر ترجمته في: جلال الدين السيوطي: شرح لامية العجم للطغرائي، تدقيق، أحمد علي حسن، مكتبة الآداب، القاهرة، مصر، 1923، ص3.

مجدي أخيرا ومجدي أولا شرع والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفل

و إنما رجل الدنيا و واحدها من لا يعوّل في الدنيا على رجل[1]

ولمفدي زكريا قدم راسخة في توظيف التراث الشعري القديم لفظا ومعنى، يقول في قصيدة ألا في سبيل المجد:

ألا في سبيل المجد سعيي وأعمالي و لله ما لاقيت من غُمر أهوال

و لو أنما أسعى لأدنى معيشة كفاني ولم أطلب قليلا من المال

ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي[2]

فقد نسج الشاعر قصيدته على منوال البحر الطويل وعلى حرف الروي (اللام) وعلى نفس قافية قصيدة امرئ القيس التي أخذ الشاعر منها البيتين الثاني والثالث ومطلعها:

ألا عِمْ صباحا أيها الطلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي[3]

ولمحمد العيد علاقة كبيرة بالتراث ولشعره ارتباط كبير بالمعجم الشعري القديم على الرغم من أنه عالج موضوعات حديثة، ومن أمثلة شعره الذي يشبه معجم القصيدة القديمة بكل خصائصها الفنية، قوله في قصيدة (يا فتية العلم شُدُّوا العزم):

اليوم أُسدي على نول من الأدب مطارفي من خيوط الشمس للشهب

اليوم أهدي تحياتي وموعظتي إلى العباقرة الصيابة النُّخب

النازلين كقطر الغيث منسكبا في ظل قطر لهم بالبشر منسكب

الزاحفين لغارات النهى طلبا والجامعين عليها الهمَّ في الطلب[4]

فالمتأمل لكثير من الكلمات التي شكّل بها الشاعر هذه المقطوعة يدرك أنها كانت متداولة في شعر أبي تمام والمتنبي و غيرهما مثل (الشهب ومطارفي وخيوط الشمس) هذا بالإضافة إلى القدرة على التصوير التي تجلت في التشبيه المفصل المستوفي الأركان (تشبيه العباقرة بقطر الغيث)، وفي طريقة تحسين الكلام كالتصريع في البيت الأول، والجناس الناقص في

---

[1] – محمد الهادي الزاهري: شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، ص5.

[2] – المصدر نفسه، ص259.

[3] – المصدر نفسه، هامش الصفحة 259.

[4] – محمد العيد آل خليفة: الديوان، ص231.

البيت الثالث بين (قِطْر وقُطْر)، ضِفْ إلى ذلك جزالة اللفظ في قوله: (العباقرة والصيابة والنازلين والزاحفين) وبناء القصيدة على حرف الباء رويا، وكأن القارئ مع بائية أبي تمام في وصف معركة عمورية*، وفي قصيدة (استوح شعرك) يقول محمد العيد:

د – النبرة الخطابية والأسلوب المباشر

المقصود بالنبرة الخطابية هو شيوع أساليب بعينها في الشعر الجزائري الحديث، وهذه الأساليب تحمل من خصائص الخطابة أكثر مما تحمل من خصائص الشعر.

وحينما نتصفح دواوين معظم شعراء الجزائر في العصر الحديث، ندرك مدى شيوع هذه الظاهرة، وأن الفرق بين أساليبها وبين أساليب الخطابة هو الوزن والقافية الملتزمة فقط، حيث تسيطر كثير من العناصر التي توحي بذلك مثل: الوضوح الذي يكتسي جلّ القصائد، واستعمال أحرف التنبيه والمزاوجة بين الأسلوبين الخبري وعناصر توكيده، وبين الأسلوب الإنشائي، حيث يكثر النداء والاستفهام والأمر والنهي، وتعدد أغراض هذه الأساليب حسب الحالات النفسية للشعراء.

يكثر هذا في كتاب: شعراء الجزائر في العصر الحاضر الذي أعده محمد الهادي الزاهري، وفي دواوين: محمد العيد و مفدي زكريا وأحمد سحنون وإبراهيم أبي اليقظان وصالح خرفي وغيرهم.

فقد مثل الشعر آراء هؤلاء الشعراء في الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والتحرر الوطني، فكان أسلوبهم خطابيا إنشائيا فيه صيغ الأمر والنهي والتوكيد، ونظرا لصلته العميقة بالجمهور، ولغايته التعليمية، فإنه يتبنى الآراء الشائعة والقريبة من مستوى الجمهور نفسها[1]. وقد ورد مثل هذا في فاتحة كتاب (شعراء الجزائر) يقول معدّ الكتاب:

يا فتية نادمت في ظل النهى وشربت في كأسهم إبريقا
و سألتهم شعرا يؤلف عقده من كل معنى في الشعور دقيقا

---

* – معركة عمورية: كانت بين الخليفة العباسي المعتصم بالله الذي حكم بين (218–227هـ)، وإمبراطور الروم تيوفيل بن ميخائيل، وتحقق النصر المبين فيها للمسلمين.

[1]– ينظر: أحمد شرفي: الشعر الوطني الجزائري من 1925 حتى 1954، رسالة دكتوراه الحلقة الثالثة، جامعة الجزائر، 1978–1979، ص189.

فتسابقوا دُرَرَ البيان وأَرْسَلوا في الشعر معنى لم يكن مطروقا

يا من هببت بهم فكانوا سُبَّقا لم تُلْفِ بينهم فتى مسبوقا[1]

وفي الأبيات إشادة كبيرة بمن دعاهم الشاعر إلى إرسال شعرهم إليه، لإنجاز أول ديوان يحفظ تراث الجزائر في زمن عصيب، فلبوا سِراعا مراعين في شعرهم ما تتطلبه المرحلة منهم، وهو أن يكونوا ملتزمين بالعمل على ما يُحيي العباد ويُحرر البلاد.

وهي النظرة نفسها يرددها محمد اللقاني بن السائح موجها شعره (إلى رجال العمل إلى الشباب) ناقلا صرخة استغاثة من الجزائر الجريحة إلى من يُحييها بالعمل ونشر العلم:

إليكم أيها النبلاء إليكم تردد أمكم صوتا حزينا

سراعا للتجاذب والتآخي وكونوا على الولاء متعاهدينا

ومنا أيها العظماء شكر به نجزي جزاء المحسنينا[2]

فالشاعر يردد أساليب الخطابة مثل الأمر بصيغه المختلفة (إليكم، سِراعا، كونوا) والنداء (أيها) كما يفعل الخطيب أمام الجمهور، و يوجه النصح ويبشر بالجزاء، لكون الموضوع من القضايا الهامة ذات الصلة بالحياة اليومية، التي واجهها المجتمع الجزائري في بداية نهضته "وقد كانت العناية بتلك القضايا واجبا وطنيا، ومظهرا للنهضة الأدبية والسياسية في الوقت نفسه"[3].

ومرجِع ذلك هو أن المجتمع الذي يخاطبه الشاعر مجتمع أغلبه أُمِّيّ في حاجة إلى تربية وتكوين، اجتماعيا وسياسيا، أكثر مما هو في حاجة إلى الفن والجمال.

ولمحمد العيد قصيدة بعنوان (بُشرى للجزائر) بمناسبة افتتاح دار الطلبة التابعة لمعهد عبد الحميد ابن باديس سنة 1953 منها:

يا معشر السروات هذا محفل نهضت به الآمال من عثراتها

فتبرّعوا بالمال فيه لمعهد حرّ، ودار أسندته بذاتها

وتسابقوا في الصالحات فإنكم أهل لنيل السبق في حلباتها

---

[1] – محمد الهادي الزاهري السنوسي: شعراء الجزائر، في العصر الحاضر، ج1، ص62.

[2] – المصدر نفسه، ص114.

[3] – أحمد شرفي: الشعر الوطني الجزائري من 1925 حتى 1954، ص258.

أنتم صناديد الجزائر، فابعثوا مجد الجزائر واهتفوا بحياتها[1]

ولأحمد سحنون قدم راسخة في توظيف مثل هذه الأساليب الخطابية، من أمثلة ذلك: قصائده (إلى المعلم وإلى التلميذ وكشّاف وإلى الشاعر وجمعية العلماء أدت رسالتها)[2]، فلا تكاد قصيدة من هذه القصائد تخلو من استعمال التراكيب الإنشائية من استفهام ونداء وتعجب وأمر ونهي ونحو ذلك للتفاعل مع المتلقي، وكمثال على ذلك، قصيدته (إلى المعلم) التي جاء فيها:

هات من نشء الحِمى خير عتاد وأدخرهم لغد جـــــند جهاد
هاتـه نـشئا قـــــويا، باســـــلا إن دجا خطب يكن أول فـادي
حُطْهُ بالإسلام من كـــــل أذى واحْمِهِ بالخـُلق من كل فساد
واهده بالعلم فالـــــعلم ســـــنى ومن القـــــرآن، زوِّده بزاد
صُغْهُ للإسلام نبراس هـــــدى ومثالا من كل ذكاء واجتهاد[3]

وتعليل شيوع هذه الظاهرة هو أن شعراء الجزائر وجدوا أنفسهم في مواجهة المرحلة التاريخية الصعبة وهي مرحلة الاستدمار، الذي كان الشعراءُ أنفسُهم أَوَّلَ ضحاياه، فالتزموا خط الحركة الإصلاحية لإيصال أصواتهم إلى الجزائريين من أجل تحديد المواقف

وهناك سبب آخر وهو ارتباط هذا الشعر بالمناسبات الدينية والاجتماعية والسياسية التي كانت جمعية العلماء تعقدها.

وخلاصة القول إن اللغة الشعرية عند الشعراء سواء قبل الثورة التحريرية أو بعدها لها جوانب إيجابية وأخري سلبية، فمن إيجابياتها حسن توظيفها وسلامتها وقوة سبكها، وقربها من الأفهام، فلم يتكلف أصحابها الجري وراء الغريب منها، وهذا لا يتنافى ومبدأ البلاغة كما ورد عند الجاحظ: "لا

[1] – محمد العيد آل خليفة، الديوان، ص 213.
[2] – ينظر: أحمد سحنون: الديوان، ص 14-16-18-20-25.
[3] – المصدر نفسه، ص14.

يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه، ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك"[1].

ثانيا – من حيث الصورة الشعرية

ولم يغفل الشعراء الجزائريون في العصر الحديث أهمية الصورة في الشعر فقد تفطن إبراهيم أبو اليقظان إلى ذلك حيث قال: "على الشاعر أن يكون مطمئن الخاطر مرتاح البال غير مشغول بما يشوه مرآة خياله التي يجب أن تكون في غاية ما يكون من النقاوة والصفاء، لترتسم فيها الحقائق وتتراءى له فيها اللطائف والدقائق"[2].

وجاءت نظرة النقاد الجزائريين إلى الصورة الشعرية أقرب إلى توجه الشعراء كما نلمس ذلك في مفهوم الصورة عند عبد الملك مرتاض إذ يقول: "هي شيء يجنح نحو تقريب حقيقتين متباعدتين"[3].

والمتصفح لدواوين شعراء المدرسة المحافظة يلاحظ إن أغلب الصور الشعرية في القصائد العمودية مأخوذة من ثقافة الشعراء الدينية والأدبية، فهي منبثقة من القرآن الكريم، أو من الأدب العربي القديم، أو من مدرسة الإحياء، أو مستمدة من طبيعة الجزائر الخلابة أحيانا، يطغى عليها التشبيه والاستعارة والكناية، مع قليل من الرموز التراثية والتاريخية، لأن الظروف جعلت الشعراء يحتذون النماذج التراثية في أشكالها وصورها ويعترون الخروج عن مقاييس القدماء ردة ثقافية.

ثالثا – من حيث الموسيقى الشعرية

أما التشكيل الموسيقي للشعر الجزائري الحديث، فمن حيث الموسيقى الداخلية، اعتمد الشعراء الكلمات ذات الشحنات الانفعالية المصبوبة في قوالب التجربة الشعرية ، مستغلين ما للغة العربية من ثراء، فكثر التجنيس والطباق والمقابلة، واعتماد حروف معينة في الكلمة وكلمات معينة في البيت لتحقيق الأثر الذي يريدونه في المتلقي.

---

[1] – الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن محبوب): البيان والتبيين،ج1، ط5، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 1985، ص 115.

[2] – إبراهيم أبو اليقظان، الديوان،ج1 ،ص61.

[3] – عبد الملك مرتاض: بنية الخطاب الشعري (دراسة تشريحية لقصيدة "أشجان يمانية" ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1991، ص49.

أما من حيث الموسيقى الخارجية فقد ظلت روح القصيدة القديمة مسيطرة في الغالب، مع بعض الجوانب التجديدية البسيطة، وسيطرت البحور (الكامل الخفيف الرمل البسيط والطويل) على القصائد، مع قليل من الاهتمام بالبحور المجزوءة، التي تناسب الأناشيد الثورية، ولم نلاحظ التحرر من ذلك إلا مع شعراء الثورة وكان ذلك نسبيا للغاية.

وإن قيل عن هذا الشعر على إنه لا يمثل الجودة الفنية المرجوة ، فحسبه أنه انتصر للمضمون، في زمن كان الوطن ينادي الشاعر إلى نجدته.